الفصل الثالث

أسرع الأديان نمواً اليوم

سيف العقل :

إن خصوم الإسلام ، والمشككين فيه ، والمبشرين بالدين المسيحي ، وأتباعهم في مختلف معسكراتهم في كل أنحاء العالم ، لن يكفوا أبدًا عن الادعاء بأن الإسلام قد انتشر بالسيف! ولكنهم لن يخاطروا أبدًا بأن يجيبوا عن سؤالنا . . . . من الذي رشا كارلايل ؟ في عام ١٨٤٠ عندما دافع كارلايل عن محمد ﷺ ودحض ذلك الادعاء الزائف بشأن السيف لم يكن هنالك أحد من المسلمين بالقرب منه لكي يرشُوَهُ . كان العالم الإسلامي كله آنذاك تحت احتلال الغرب المسيحي في حالة يرثى لها ، وكانت الأقطار الإسلامية كلها تحت حكم وسيطرة المسيحيين ، فيما عدا القليل منها ، مثل إيران وأفغانستان وتركيا التي كانت مستقلة استقلالاً اسميًا فقط ، رغم قوة تأثير نفوذ المسيحيين في هذه الأقطار أيضًا . ولم تكن لدى أي قطر من الأقطار الإسلامية آنذاك ثروات لتغوي ، ولا بترو - دولارات لترشو !

كان ذلك في الماضي منذ وقت طويل ، ولكن ماذا بشأن اليوم في عصرنا الحديث؟ يتضح من الرسم البياني التالي أن الإسلام هو أسرع الأديان انتشارًا ونموًا في العالم . مجمل الزيادة في نطاق كل المذاهب والملل والنحل المسيحية تتراوح حول نسبة مئوية مقدارها ١٣٨٪ في مقابل زيادة مدهشة في السنة المئوية لانتشار الإسلام في العالم بلغت ٢٣٥٪ في نفس المدة الزمنية التي تم قياس الزيادة في الانتشار خلالها ، وهي نصف قرن من الزمان .

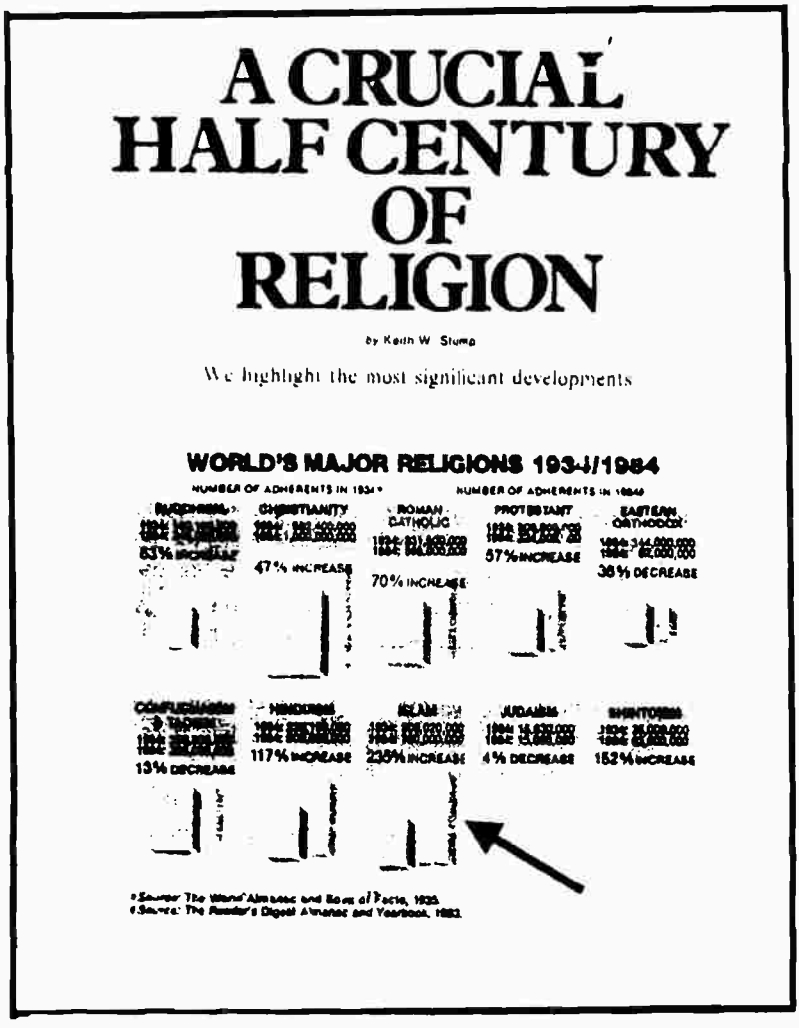

يقدم لنا المؤلف الرسم البياني الذي نشرته مجلة «بلين ثروت» تحت عنوان: «نصف قرن حاسم في شئون الدين» - أديان العالم الكبرى في المدة من ١٩٣٤ إلى ١٩٨٤ .

والرسم البياني يوضح مدى الزيادة في معدل انتشار الإسلام في العالم التي بلغت نسبتها المئوية ٢٣٥٪ (انظر مكان السهم) بينما بلغت نسبة الزيادة في انتشار المسيحية ١٣٨٪ .

ومن الأمور التي ازداد التأكيد عليها ، أن الإسلام هو الدين الأكثر انتشارًا في الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي بريطانيا . ويقال : إن عدد المسلمين في بريطانيا أكثر من عدد المسيحيين الميذوديست فيها . ولك الحق في أن تسأل عن السيف ، والإجابة هي كما قالها توماس كارلايل : يوجد السيف فعلاً ، ولكنه سيف الحق والعدل والعقل . إنه سيف يتمثل في نبوءة ، وحقيقة قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا** ﴾ (الفتح : ٢٨) .

لقد تحدد مصير الإسلام باعتبار أنه دين الله الصحيح بأوضح الكلمات ، كلمات الله سبحانه وتعالى . مصير الإسلام هو أن يسود كل الأديان في العالم متفوقًا على كل دين آخر كما يدل على ذلك بكل وضوح قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ** ﴾ (الفتح : ٢٨) .

وكلمة «دين» في اللغة العربية تعني في أصلها اللغوي «طريقة الحياة» وتعبير : «ليُظهرَه على الدين كله» تعنى أن دين الإسلام سيسود وسيعلو كل الأديان سواء في ذلك الهندوسية ، أو البوذية ، أو المسيحية ، أو اليهودية ، أو الشيوعية (باعتبار أنها تدعى أنها نظام في الحياة ، وقد أعلنت الشيوعية إفلاسها التام ، وقصورها عن أن تكون نظامًا سليمًا لحياة الناس) .

ويتكرر نفس المعنى في آية قرآنية أخرى في سورة الصف ، إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ (الصف :٩) .

انتصار الإسلام :

سيسود الإسلام ويزداد انتشاره في العالم . هذا هو وَعْدُ الله سبحانه وتعالى ، ولن يخلف الله وَعْدَه . ولكن ، كيف سيسود الإسلام ، ويزداد انتشارًا في العالم؟ .

هل سيتحقق ذلك بالسيف؟ لا ، لن ينتشر الإسلام في العالم بالسيف حتى لو كنا نملك مدافع الليزر . هل نحن نستطيع أن نستخدم مثل هذه المدافع

لنشر الإسلام في العالم؟ إن القرآن الكريم يمنعنا ، ويحرم علينا أن نستخدم القوة كوسيلة لفرض الإسلام ، وإجبار الناس على التحوُّل إليه ، والدخول فيه ، وبالرغم من ذلك نجد أن الآية القرآنية الكريمة ، تتنبأ بأن الإسلام سيكون هو الدين الغالب بين الأديان الأخرى . إن الانتصارات التي تحرزها عقائد الإسلام قد بدأت مؤشرات ظهورها بالفعل ، وهي تحقق الغلبة والفوز والهيمنة بالمقارنة مع كل الأيديولوجيات ، والعقائد الدينية الأخرى في كل أنحاء العالم ، وإن لم يكن ذلك في إطار الدين الإسلامي ، فهي تدخل في إطار الإصلاح ، وحل مشكلات العالم . وعقائد الإسلام ومبادئه يتم الأخذ بها والتسليم بصوابها في مختلف النظم الدينية . وكثير من الحقائق التي كانت إسلامية الطابع ولم تكن معروفة من قبل ، أو كانت تواجه بمعارضة قوية من قبل بكل شدة وبكل صراحة لدى أتباع الأديان الأخرى ، قد أصبحت الآن جزءًا من منظومة الحقائق العلمية المعترف بها علميًا من العلماء الذين يعتنقون مختلف الأديان .

- الأخُوَّة بين كل البشر .
- إلغاء نظام القديسين والمنبوذين .
- حق المرأة في الميراث .
- احترام المعابد ، ودور العبادة بالنسبة إلى كل الأديان .
- تحريم شرب الخمر .
- الفهم الصحيح لوحدانية الله سبحانه وتعالى دون شبهات الإشراك به .

وقبل أن نطوي الكلام عن هذه الاعتبارات المهمة نَوَدُّ أن نضيف كلمة وجيزة عن الاعتبار الأخير المتعلق بوجوب وحدانية الله دون إشراك . سل أي مؤمن بالله ، أو أي مشرك بالله ، أو أي مؤمن بوحدة الوجود ، أو أي مؤمن بالتثليث ، سَلْهُ : كم عدد الآلهة التي يؤمن بها؟ سيرتجف بشدة لو قال أي عدد للآلهة غير الإله الواحد! وهذا هو تأثير التوحيد النقي الحقيقي في الإسلام .

وفي ذلك يقول المؤرخ جيبون في كتابه : «اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية» ما نصه بالحرف الواحد : «**عقيدة محمد ﷺ عقيدة لا غموض فيها ، والقرآن الكريم شهادة ناصعة الصدق بوحدانية الله**» .

رأي غير المسلمين من بلاد الشرق :

معظم المدافعين عن محمد ﷺ ضد الرأي القائل بأنه قد نشر دينه بحد السيف كانوا من الغربيين . ولنستمع الآن لما يقوله بعض غير المسلمين من مفكري الشرق في هذا الصدد .

٨- أ- «كلما درست أكثر اكتشفت أن قوة الإسلام لا تكمن في السيف» .

(المهاتما غاندي - مؤسس الهند الحديثة في كتابه : «شباب الهند») .

ب- إنهم ، منتقدو محمد ﷺ ، يرون النار بدلاً من أن يشاهدوا النور ، ويستسيغون القبح بدلاً من الاستمتاع بالجمال . إنهم يخرفون ويعتبرون كل فضيلة وميزة وكأنها رذيلة مستهجنة . إن ذلك إن دل على شيء فهو يدل على أنهم محرومون من نعمة التمييز وحسن الإدراك . . . . . إن منتقدي محمد ﷺ إنما هم جماعة من العُميان . إنهم لا يدركون أن السيف الوحيد الذي شهره وشرعه محمد ﷺ إنما كان هو «**سيف الرحمة**» والتعاطف والصداقة والتسامح - إنه السيف الذي يهزم الأعداء ، وينظف قلبهم من الغضب والحقد والحسد والكراهية . لقد كان سيفه أمضى من السيف المصنوع من الحديد الصلب» .

(باندیت جیانادرا دیف تشارما شاستري أثناء لقاء تم عقده في جورا كفور بالهند سنة ١٩٢٨) .

جـ- «لقد فَضَّل محمد ﷺ الهجرة على قتال أبناء بلده . ولكن عندما تجاوز العدوان كل حدود إمكانات التسامح امتشق سيفه دفاعًا عن نفسه . وأولئك الذين يعتقدون أن أي دين يمكن أن يتم نشره بالسيف ، إنهم جماعة من الحمقى الذين لا يعرفون الطرق السليمة لنشر الدين ، ولا يعرفون فيم تستخدم السيوف ، ولا يعرفون شيئًا من شئون الدنيا بوجه عام . إنهم مزهوون

بهذا الاعتقاد الخاطئ ؛ لأنهم بعيدون عن الحق بمسافات كبيرة شاسعة» .

(صحفي من طائفة السيخ في صحيفة ناوان هندوستان الصادرة في مدينة دلهي بتاريخ ١٧ نوفمبر ١٩٤٧) .

ولقد كان روديار كيبلينج هو الذي قال : «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا» ولقد كان كيبلينج على خطأ في ذلك! في مجال الدفاع عن محمد ﷺ ضد الاتهام بأنه قد نشر الإسلام بحد السيف التقى بالفعل الشرق والغرب .

ثلاثة مقاييس أخرى :

بعد أربعة عشر عامًا من إلقاء توماس كارلايل لمحاضرته دفاعًا عن بطله ، النبي محمد ﷺ ، كتب شاعر فرنسي هو «لامارتين» كتابًا بعنوان : «تاريخ الأتراك» . وحيث إن الأتراك مسلمون ، فلقد تعرض لامارتين بالدراسة لبعض جوانب الإسلام ، كما تناول بالدراسة بعض الجوانب من شخصية مؤسس الإسلام ، محمد ﷺ ، ومثلما وضع جولز ماسرمان في أيامنا هذه ثلاثة مقاييس موضوعية لقياس عظمة القيادة ، فلقد ابتكر لامارتين منذ أكثر من قرن من الزمان ثلاثة معايير موضوعية أخرى ، لقياس عظمة القيادة والقادة . ومن الضروري أن نشهد لمفكري الغرب بالبراعة في وضع مثل هذه المقاييس ، أو المعايير الموضوعية لإصدار الأحكام السليمة ، وفي هذا الصدد يقول لامارتين :

٩- لو كانت عظمة الهدف أو الغاية ، وكانت بساطة وضآلة تكاليف الوسيلة ، بالإضافة إلى تحقيق النتائج الباهرة بنجاح وسلاسة هي المعايير الثلاثة للعبقرية البشرية ، فمن ذا الذي يجرؤ أن يقارن أي رجل عظيم من عظماء التاريخ الحديث بنبي الإسلام محمد ﷺ ؟!

وينهي لامارتين مقالته الطويلة الرائعة في هذا الصدد بقوله : «**فيلسوف ، خطيب ، رسول من رسل الله ، مُشَرِّعٌ ، محارب ، منتصر الفكر ، مساند للعقائد المعقولة ، هادم للأصنام بمختلف صورها ، مؤسس عشرين إمبراطورية دنيوية أرضية ، وإمبراطورية روحية واحدة ، ذلكم هو محمد ﷺ وبكل المقاييس والمعايير التي يمكن أن تقاس بها عظمة البشر**

يجوز لنا أن نسأل سؤالاً له كل الوجاهة ، وكل الدواعي : هل يوجد أي رجل أعظم من محمد ﷺ ؟

(لامارتين في كتابه : «تاريخ الأتراك - باريس ١٨٥٤) .

وإجابة سؤال لامارتين :

«هل يوجد أي رجل أعظم من محمد ﷺ ؟ متضمنة في ثنايا السؤال نفسه . إنه بطريقة أخرى يقول : «لا يوجد رجل أعظم من محمد ﷺ » .

أو هو بطريقة أخرى يقول :

«محمد ﷺ هو أعظم رجل عاش على وجه الأرض» .

ونجد هذا القول مصداقًا لقول الله سبحانه وتعالى لخاتم الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح :٤) . وبكل تأكيد لقد رفع الله سبحانه وتعالى له ذكره .

وقبل أن ننفي عن لامارتين أي انحياز في الرأي ، أو اتهام بالرشوة سنقوم بفحص مقاييسه الثلاثة ، وسنرى ما إذا كانت صحيحة بالنسبة لعظمة نبي الإسلام محمد ﷺ .

١- عظمة الهدف أو الغاية :

تاريخ العالم ، لو درست تاريخ العالم حتى الآن ، سترى أن الوقت الذي أمر فيه الله سبحانه وتعالى خاتم أنبيائه ورسله ، محمدًا ﷺ ، أن يعلن للناس رسالته كان من أشد الأوقات ظلامًا !

لقد كانت الحاجة ماسة إلى أحد أمرين : إما إرسال نبي ، إلى كل ركن وكل أمة من أركان وأمم العالم ، أو إرسال نبي خاتم للأنبياء والرسل إلى كل البشر في كل أمم ، وأركان العالم لكي يخلصَ ويحررَ البشرَ من الزَّيف ، والخرافة ، والأنانية ، وتعدد الآلهة ، والضلال ، وظلم وقهر الإنسان لأخيه الإنسان . وتكون رسالة خاتم أنبياء ورسل الله موجهة من الله إلى الإنسانية كلها . واقتضت مشيئة الله وحكمته أن تختار لهذه الرسالة الخاتمة النبي خاتم الأنبياء

والمرسلين ﷺ من أعماق أكثر مناطق الأرض بُعدًا عن مراكز الحضارة قبل بعثه إلى البشر كافة ، من شبه الجزيرة العربية . وهذه الحقيقة ، أن رسالة نبي الإسلام ﷺ كانت رسالته لكل البشر ، قد سجلها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء :١٠٧) .

«لا مجال هنا الآن لتمييز جنس على جنس آخر ، أو تفضيل أمة على أمة أخرى . لا مجال هنا الآن «للشعب المختار» أو «بذرة إبراهيم» أو «نسل داود» أو «هندو آريا فارتا» أو «اليهود» أو «الجوييم» أو «العرب أو العجم (الفُرْس) ، الأتراك أو الطاجيك ، الأوربيين أو الآسيويين ، البيض أو الملونين ، الآريين أو الساميين ، المغول أو الأفارقة ، الأمريكي أو الأسترالي أو البولندي . إنه لكل الناس ولكل المخلوقات التي حباها الله القدرة على تحمل المسئولية الروحية ، إنه يقدم المبادئ السليمة لكل العالم» . . هذا هو ما يقوله عبد الله يوسف على ، في ترجمته لمعاني القرآن الكريم وتعليقاته .

المسيح عليه السلام ومسألة التمييز العنصري :

إن النبي السابق مباشرة لنبي الإسلام محمد ﷺ كان قد نصح حواريه قائلاً لهم : «لا تعطوا القدس للكلاب (والمقصود بالكلاب هم الناس غير اليهود) ولا تطرحوا دركم قُدَّام الخنازير (والمقصود بالخنازير هنا هم الناس غير اليهود» لئلا تدوسها بأرجلها ، وتلتفت فتمزقكم» . (إنجيل متى ٧ :٦) . ولا يهتم كتاب الإنجيل بتسجيل أن المسيح عليه السلام كان يعيش وفقًا للمبادئ التي كان يعلنها . وطوال حياته ، لم يتجه المسيح بدعوته إلى شخص واحد من غير اليهود . ولقد صَدَّ المسيح عليه السلام حقًا امرأة غير يهودية رافضًا أن يمنحها أي شيء من البركة التي كانت تلتمسها عنده من أجل شفاء ابنتها من المرض (وكانت تلك المرأة يونانية) كما وَرَدَ ذِكْرُه في إنجيل مرقس (٧ :٢٦) . وبعدئذ وأثناء الاحتفال بعيد الفصح في أورشليم عندما كان المسيح عليه السلام مجتمعًا مع تلاميذه للاحتفال بهذه المناسبة ، سعى بعض اليونانيين للاستماع إليه طلبًا لمعرفة توجيهاته الروحية ، ولكن المسيح عليه السلام عزف عن الترحيب بوجودهم كما يحكي عن ذلك إنجيل يوحنا بقوله : «وكان أناس يونانيون من الذين صعدوا

ليمجدوا في العيد . فتقدم هؤلاء إلى فيلبس الذي من بيت صيدا الجليل وسألوه قائلين : يا سيد ، نريد أن نرى يسوع . فأتى فيلبس وقال لأندراوس ثم فيلبس وأندراوس ليسوع» .

(يوحنا ١٢ : ٢٠-٢٢) .

تمجيد الذات :

ولا تدل الرواية بعد ذلك على أي ترحيب ، أو رفض ، كما لو كان المسيح عليه السلام لم يعبأ برغبة أولئك الذين كانوا قد حضروا من أجل الاستماع إلى مواعظه ، كما سجل ذلك (إنجيل متى ٥ :٣٧) ، بينما يمضي إنجيل يوحنا ليؤكد إحساس المسيح بالفخر والإعجاب بنفسه ويؤكد ذلك قول إنجيل يوحنا في هذا الموضع : «وأما يسوع فأجابهما قائلاً : قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان» . (يوحنا ١٢ :٢٣) .

أرقى مقاييس السمو الأخلاقي :

لم يضع محمد ﷺ مثل هذه الخطوط الفاصلة التي تباعد بينه وبين الناس من مختلف الأجناس ، والألوان ، والأديان ، والطبقات الاجتماعية . ولنتذكر مَعًا كيف أن الله العلي العليم قد وجه النبي الكريم ﷺ إلى أرقى آداب السلوك في التعامل والتواصل مع الآخرين . إن جولان فكرة الاستياء من مقاطعة الرجل الأعمى لحديثه مع عِلية القوم في خاطره قد عاتبه الله بشأنها ، ولم يدعها تمر دون تمحيص لها (انظر ص ٣٩ في سبب نزول سورة عبس) . إن الله سبحانه وتعالى قد وضع لسيدنا محمد ﷺ أرقى المعايير الأخلاقية وأكثرها رفعة وسُمُوًّا باعتبار أنه ﷺ قد بعثه الله للناس كافة ، وكانت أخلاق النبي ﷺ تتسق مع هذه المعايير الإلهية للرقي الأخلاقي ، وهى الحقيقة التى أعلنها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في قوله الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ (القلم :٤) .

ومن هم الذين يتجه إليهم بدعوته؟ وما هو مجال دعوته؟ إنهم كل البشر في كل أنحاء العالم!

ويؤكد الله - سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم أن رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ إنما هي موجهة إلى كل البشر في كل أرجاء العالم في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء :١٠٧) .

رسول من الله إلى كل الناس :

وليس هذا الاعتبار مجرد ملاحظة سطحية عابرة ، وليس هذا الاعتبار ، اعتبار أن محمدًا ﷺ إنما هو رسول الله إلى الناس كافة ، مجرد اعتبار جميل الشكل مُرْض للنفوس يزجى إلى نفوسنا شعورًا بالفخر والخُيَلاء دون أن يكون متسقًا مع الواقع الفعلي في ممارسة رسول الله ﷺ إلى البشر جميعًا أثناء دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له إبّان حياته ﷺ . إننا بالفعل نجد أن بين صحابته ﷺ بالإضافة إلى صحابته من العرب ، نجد سيدنا بلالاً الحبشي ، ومن صاحبته أيضًا سلمان الفارسي ، ومن صحابته أيضًا عبد الله بن سلام اليهودي . ويجوز أن يقول المتشككون : إن هذه مجرد مصادفة ، ولو قالوا ذلك فماذا عساه أن يكون قولهم بشأن الحقيقة التاريخية القائلة : إنه ﷺ قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى كان قد بعث بخمس رسائل يحملها خمسة من أتباعه إلى خمسة ملوك وحكام في كل الأقطار المأهولة بالسكان في عالمه المعاصر داعيًا إياهم ، وداعيًا شعوبهم للانضمام إلى الإسلام والدخول في دين الله الصحيح ، وهم :

١) ملك الفرس : كسرى .

٢) حاكم مصر تحت الحكم الروماني : المقوقس .

٣) النجاشي : حاكم الحبشة .

٤) الإمبراطور الروماني : هرقل بالقسطنطينية .

٥) ملك اليمن .

وهكذا كان محمد ﷺ قد أكَّدَ من خلال الممارسة الفعلية لمهام وواجبات دعوته الدينية صفة العالمية في دعوته ، ولم تكن دعوته قاصرة على قومه من

العرب وحدهم ، مما يحقق أيضًا - ودون أي ريب- صفة «عظمة الهدف أو الغاية» التي اعتبرها لامارتين أول مقاييس عظمة العظماء في التاريخ . هل يوجد في التاريخ مثال آخر يضارع مثل هذه العالمية في الدعوة إلى دين الإسلام؟ ولم يكن هدف سيدنا محمد ﷺ هو تحطيم أي سجل سابق في مدى اتساع نطاق الدعوة الدينية ، ولكنه بكل بساطة كان يؤدي الأمانة التي أوكلها إليه رب العالمين .

٢- بساطة وضآلة تكاليف وسيلة تحقيق الغاية:

لم يولد محمد ﷺ وفي فمه ملعقة من فضة . لقد بدأت حياته بداية ضئيلة المساندة في تحقيق الهدف . لم يكن ابن ملك أو إمبراطور ، أو سليل أسرة حاكمة ليسانده هذا الاعتبار في تحقيق أي هدف كبير . كان أبوه قد مات قبل أن يولد ﷺ . وماتت أمه وهو في السادسة من عمره . وهكذا كان ﷺ يتيم الأبوين ، وهو لا يزال في عمر الطفولة الغضة . ويتولى رعايته جَدُّهُ عبدُ المطلب . ولكن يتوفاه الله بعد ثلاثة أعوام فقط . وحالما استطاع ﷺ القدرة على العمل شرع في أن يرعى أغنام عمه أبي طالب . وتستطيع أن تقارن المفارقة الكبيرة بين هذا الطفل اليتيم الأبوين وبين بعض الشخصيات الدينية العظيمة الشأن ممن سبقوه في هذا المجال ، مجال النبوة وحمل رسالة الله إلى الناس ، ولابد أنك ستعجب مما كان مخبوءاً له في عالم الغيب !

كان سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو الجد الأعلى لسيدنا موسى ، وسيدنا عيسى وسيدنا محمد ، عليهم جميعًا السلام ابنا لأحد رجال الأعمال في عصره . ولقد نشأ وتربى سيدنا موسى عليه السلام بداخل قصر فرعون مصر . وعلى الرغم من أن سيدنا عيسى عليه السلام كان يوصف بأنه نجار وابن نجار[1] ، فلقد كانت قد أتيحت له فرصة أن يتزود بالعلم ، كما أتيحت له أسباب القوة المادية منذ بدء دعوته بانضمام بطرس ، وفيليب ، وأندراوس إليه ، مساندين لدعوته لا لمجرد أن هالة من النور كانت تحيط برأسه ، فلم تكن هنالك أي هالة من النور حول رأسه

(١) ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ (النساء : ١٧١)

في حقيقة الأمر ، ولكن بسبب تأثير مظهره القوي ، ولهجته الآمرة . ولقد كان المسيح عليه السلام يستطيع أن يسيطر على الجماهير من قومه اليهود في أورشليم ، وكان الحواريون يساندونه في ذلك كل المساندة ، كما كان ذلك يتجلى أثناء أعياد اليهود واحتفالاتهم ، وكانت تعد له موائد الطعام للغداء ، أو لتناول وجبة العشاء ، وكان يستطيع أن يخاطب اليهود باللغة المادية التي يفضلونها ، كما يتمثل ذلك في قول الكتاب المقدس : «ولما وجدوه في عبر البحر قالوا له : يا معلم متى صرت هنا . أجابهم يسوع وقال : الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم» .

(يوحنا ٦ :٢٥-٢٦) .

لم يكن يملك ما يغرى به:

لم يكن لدى محمد ﷺ خُبْزٌ ولا لَحْمٌ لكي يقدمه إلى الناس ليكسب رضاهم واعترافهم بنبوته ورسالته . لم يكن معه قطع من السكر من أي نوع أو حجم في هذه الحياة الدنيا أو الحياة الآخرة . والشيء الوحيد الذي كان يستطيع أن يقدمه لشعبه من الرعاة السعي المستمر ، وتحمل المشقَّات لممارسة الحياة ، كما يجب أن تمارس الحياة فوق الأرض للوصول إلى مثوبة الله في الحياة الآخرة . وكانت حياة النبي ﷺ نفسه كتابًا مفتوحًا أمامهم . كان قد أوضح لهم منهجه في الحياة ، وفي الدعوة إلى دين الله من خلال النبل في أخلاقه ، ومن خلال سلامة واستقامة مقاصده وأهدافه ، ومن خلال حماسته القوية لإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل وهو الهدف الأسمى لما كان يبشر به ، وينادي به من دين قويم . ولقد أفصحت كل تلك المناقب والخلال عن البطولة المثلى للبطل ، كما ينبغي أن يكون البطل بكل مقاييس بطولة الأبطال ، فاتبعوه . وتقييم المؤرخ ستانلي لين بول لهذه البطولة المحمدية جميل وصادق جمالاً وصدقًا يغري أن نقتبس منه ما يلي بالحرف الواحد ، إذ يقول :

«كان محمد ﷺ متحمسًا في أداء رسالته على نحو بالغ النبل ، عندما تكون الحماسة في تحقيق الأهداف النبيلة هي الملح الضروري للناس لكي يستطيعوا

الحياة فوق الأرض ، وعندما تكون الحماسة في تحقيق الأهداف النبيلة هي الشيء الوحيد الذي يحفظ حياة الناس من العفن أثناء بقائهم يعيشون أحياء بين البشر .

وفي كثير من الأحيان ربما يسيء بعض الناس استخدام الحماسة عندما لا تكون حماستهم مرتبطة بقضايا غير جديرة بأي حماسة ، أو عندما يزرعون بذور حماستهم في أرض مجدبة لا تنبت أي ثمار طيبة . ولم يكن ذلك هو شأن حماسة محمد ﷺ . لقد كان محمد ﷺ حماسيًا مفعمًا بالحماسة عندما تكون الحماسة هي الشيء الوحيد الذي يحتاج إليه العالم لكي يظل بخير حال ، وكانت حماسته ﷺ حماسة نبيلة من أجل قضية نبيلة .

لقد كان محمد ﷺ واحدًا من أولئك القلائل الذين كانوا يستمتعون بالسعادة ، والذين كانوا يفرحون كل الفرح عندما يجعلون من الحق الأوحد الأعلى النبع الوحيد للحياة .

لقد كان محمد ﷺ هو رسول الله الإله الواحد ، ولم ينس طوال حياته على الإطلاق وحدانية الله ، ولم ينس أبدًا الرسالة الإلهية التي كانت هي لب ومحور حياته كلها . ولقد كان يسمو دائمًا بأفضاله على الناس وهو واثق بنفسه بسبب وثوقه بمركزه ، باعتبار أنه رسول الله الذي اختاره لأداء رسالته إلى الناس ، بالإضافة إلى التواضع التام الجميل الذي تمتد جذوره إلى معرفته التامة بالضعف البشري دون المدد من الله سبحانه وتعالى» .

ويمكن التسليم بسهولة أن محمدًا ﷺ كان مزودًا بأقل ما يمكن تصوره من الإمكانات وأسباب القوة البشرية . وفي الحقيقة ، لقد كانت كل الظروف تعمل ضده . ولكن ، ماذا كان نصيبه من النجاح في أداء رسالته في النهاية؟ لقد أصبح سيد شبه الجزيرة العربية ! وما هي الإمكانات والوسائل التي لا حصر لها التي كانت تحت تصرفه آنذاك؟ سندع لأحد المبشرين بالدين المسيحي يتحدث في هذا الصدد :

«كان محمد ﷺ يجمع في شخصيته بين إمكانات «بابا» المسيحية ،

وإمكانات «قيصر» الإمبراطورية الرومانية . ولكن لم يكن له غرور وغموض وصلف البابا ، ولم يكن لديه جيوش وأسلحة القيصر . لم يكن له جيش متأهب للقتال ، ولم يكن له حرس إمبراطوري ممتاز التسليح ، ولم يكن يقيم في قصر من القصور المنيعة الضخمة الفخمة البناء ، ولم يكن له مخصصات مالية ثابتة يتقاضاها بموجب منصبه الديني أو الدنيوي . ولو كان لأى إنسان الحق في أن يقول : إنه كان يمارس الحكم بموجب حق أو أمر إلهي فلقد كان ذلكم هو محمد ﷺ ، لأنه كان يمتلك كل قدرات ممارسة الحكم دون أن يكون قد ورث أدوات ووسائل الحكم كما جرى بذلك شأن الملوك والقياصرة والحكام في الممالك والإمبراطوريات» .

(ر .بوزويرث سميث في كتابه : محمد والمحمدية - ص٩٢ - لندن ١٨٧٤) .

عناية الله جنده :

كان ضعف وقلة إمكاناته هما سر قوته . إن نفس الحقيقة المتمثلة في أنه لم يكن يمتلك ، مُقَدَّمًا ، وسائل المساندة المادية جعلته يضع كل ثقته بالله سبحانه وتعالى . وكان نجاحه مذهلاً إلى أكبر حد يمكن تصوُّره . ألا يجوز للمسلمين بحق أن يقولوا : إن العمل كله كان من صنع الله سبحانه وتعالى؟ ألا يجوز لهم أن يقولوا بحق : إن محمدًا ﷺ كان مجرد اختيار من الله للإنسان الذي يحقق إرادة الله ويبلغ رسالة السماء إلى الأرض؟ .

٣- نتائج باهرة :

على حد قول توماس كارلايل : «لقد كان محمد ﷺ رجلاً واحدًا في مواجهة كل الرجال» . رجل واحد جاء بالدين الصحيح ، دين الإسلام من الله إلى الناس . وقاوم الناس الدين الجديد . وحقق محمد ﷺ الانتصار للدين الصحيح ، دين الإسلام ، وكان انتصار محمد ﷺ في هذا الصدد انتصارًا باهرًا ، انتصارًا كان يمثل أروع ما يكون الانتصار عندما كان يقف وراء محمد ﷺ في حجة الوداع مائة وأربعة وعشرون ألف مسلم . وكم كان عدد المسلمين الذين لم يحضروا معه حجة الوداع من الرجال والنساء والأطفال المؤمنين برسالته؟ .

ويقول ابن هشام في كتاب السيرة النبوية : «في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول من العام الحادي عشر الهجري الموافق تقريبًا لليوم الثاني من شهر يونيه من سنة ٦٣٢ميلادية انتقلت روح النبي العظيم ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو يصلي ويدعو الله بصوت خفيض» .

وعندما سمع سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الأخبار المحزنة عن انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى فقد اتزانه الذي كان معروفًا به ، لأنه كان قد صُدِمَ صدمة شديدة لدرجة أنه صاح قائلاً : «لو قال أحد إن محمدًا ﷺ قد مات لضربت عنقه!» ولكن سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه عندما تحقق أن النبي ﷺ كان قد انتقل بالفعل إلى الرفيق الأعلى خرج إلى الناس من مسكن النبي ﷺ وقال : «أيها الناس إن من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» .

وأعادت كلمات أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى سيدنا عمر الفاروق صوابه . هل كان هذا الرجل ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قدر له أن يكون هو الخليفة العظيم الثاني في الإسلام - في تلك اللحظة يتصور أنه بعد ألف وأربعمائة عام سيصبح عدد أتباع محمد ﷺ ألف مليون مسلم؟ هل كان يستطيع أن يعرف أن دين النبي ﷺ سيكون هو أكبر وأسرع الأديان انتشارًا في العالم؟

لقد سبقت الديانة المسيحية الإسلام بنحو ٦٠٠سنة . ويدعي المسيحيون أنهم من حيث عدد الأتباع لدينهم يفوقون أتباع أي دين آخر . وهذا صحيح من الناحية العددية البحتة ، ولكن من الأفضل أن ننظر إلى الصورة في وضعها الصحيح الذي يمكننا من إدراك كل تفاصيلها :

يقول ريفراند بورلي :

« يوجد عدد من الناس الذين يعلنون انتماءهم إلى المسيحية أكبر من عدد الذين يعلنون انتماءهم إلى الإسلام ، ولكن عدد من يمارسون طقوس العبادات من المسلمين في العالم أكثر من عدد من يمارسون العبادات من المسيحيين »

(مقال بعنوان : حياة محمد ﷺ في مجلة : مسنجر الصادرة في الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ للقس بورلي» .

وأنا أفهم مما قاله القس بورلي أنه يحاول أن يخبرنا أنه يوجد أناس في العالم يضعون علامة في خانة المسيحية إشارة إلى أنهم ينتمون إلى الديانة المسيحية في الإحصاءات الرسمية ، وليس من الضروري أنهم يؤمنون بالعقائد المسيحية . ومن الممكن في حقيقة الأمر أن يكونوا ملحدين ، أو من طائفة «بوش بابتستس» ، وهي طائفة من المسيحيين الذين يرفضون الانتماء إلى أي كنيسة مسيحية ، أو أي مذهب من المذاهب المسيحية ، ولكنهم يسجلون أنفسهم في خانة الدين بالإحصاءات الرسمية باعتبار أنهم مسيحيون لمجرد التمايز عن اليهود أو الهندوس أو المسلمين . وحيث إنهم ينحدرون من أوساط مسيحية فإنهم سيصنفون أنفسهم باعتبار أنهم مسيحيون . وعلى هذا الأساس وباعتبار أن الإنسان المتدين يلزم أن يؤمن بعقائد دينه ، ويلزم أن يمارس عبادات دينه ، يوجد مسلمون أكثر عددًا من المسيحيين في العالم .

من الناحية الزمنية ، ظهر الإسلام متأخرًا عن المسيحية بحوالي ستمائة سنة ، ولكن من المدهش أن عدد المسلمين يجيء في المرتبة التالية مباشرة وبفارق ضئيل عن عدد المسيحيين ، كما أن الإسلام في طريقه إلى تقليص الفارق العددي بين الإسلام والمسيحية بسرعة فائقة . إن الإسلام هو أسرع الأديان انتشارًا في العالم اليوم . (انظر الرسم البياني ص٥٣) . لقد بلغ عدد المسلمين بليون مسلم! ووجود هذا العدد الكبير من المسلمين في العالم يلفت الأنظار بشدة ، ويضاف إلى ذلك أن الإخلاص في العبادات وإيمان المسلمين بمعتقدات الإسلام مدهش إلى أكبر حد يمكن تصوُّرُه!

● **وعندما يضع شخص مثل الشاعر المؤرخ الفرنسي مقاييسه الثلاثة لعظمة الشخصية ، وهي :**

أ) عظمة الهدف .

ب) ضآلة الوسائل .

جـ) النتائج الباهرة في اعتباره ، فهل يستطيع أن يجد أي شخص آخر بحيث يكون أعظم من محمد ﷺ . وبالإضافة إلى ذلك نجد أن لامارتين يلفت أنظار القراء إلى الأدوار التي قام بها محمد ﷺ وهي أدوار عظيمة يستحيل أن يقوم بها شخص واحد ، إذ إن لامارتين قد اعتبره فيلسوفًا ، وخطيبًا ، ورسولاً من رسل الله - عليهم السلام- ومشرعًا ، ومحاربًا ، وهادمًا للأفكار الخاطئة الشائعة ، ومنشئًا للمعتقدات الصحيحة ، وهادمًا للأصنام والتماثيل ، ومؤسسًا لعشرين إمبراطورية ومملكة من إمبراطوريات وممالك الأرض ، ومؤسسًا لمملكة روحية واحدة ، ذلك هو محمد ﷺ .

وبالنظر إلى كل هذه المقاييس ، وأكرر كلمة «كل» ، بالنظر إلى «كل» هذه المقاييس التي يمكن أن تقاس بها العظمة البشرية يجوز لنا أن نسأل : هل يوجد أعظم من محمد ﷺ ؟» .

لا ، لقد كان محمد ﷺ هو أعظم رجل عاش على وجه الأرض ، وذلك طبقًا لرأي ومقاييس المؤرخ الفرنسي لامارتين . ولقد أكّد القرآن الكريم أن محمدًا ﷺ هو أعظم رجل عاش على وجه الأرض ، وذلك في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح :٤) .

ولقد رفع الله له ذكره بما لا يدع مجالاً للشك ، فهو ﷺ وفقًا لإجماع ذوي الرأي من الشرق ومن الغرب هو أعظم رجل عاش على وجه الأرض .

صفة الرحمة :

يدأب المروِّجُون للدعاية المسيحية على أن يفخروا ويفاخروا بأنه لا يوجد في تاريخ البشرية أي شخص يمكن مقارنته بصيحة المسيح عليه السلام وهو على الصليب في مجال الرحمة بالبشر ، وفي مجال الصفح عن آثام البشر وخطاياهم . . . . وذلك عندما صرخ المسيح قائلاً : «يا أبتاه ، اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لوقا ٢٣ :٣٤) .

ويبدو مدهشًا إلى أقصى حد ممكن أن القديس لوقا كان هو الوحيد من بين كُتَّاب الأناجيل الأربعة المعترف بها الذي ألهمه الروح القدس أن يكتب بقلمه

هذه الكلمات التي طالب فيها المسيح أباه أن يغفر لمن شرعوا في قتله صلبًا . وكُتَّاب الأناجيل الثلاثة الآخرون : متى ، ومرقص ، ويوحنا ، لم يسمعوا أبدًا هذه الكلمات تصدر عن المسيح في ذلك الموقف الرهيب المشهود ، وربما حسبوها كلمات فارغة من المعنى لا أهمية لها ، لدرجة أنها لا تستحق أن تسجَّل من جانب أي منهم . ولم يكن القديس لوقا واحدًا من الحواريين الإثنى عشر الذين كان قد اختارهم المسيح عليه السلام . ووفقًا لرأي مراجعي ومحرري النسخة المنقحة من الأناجيل (R.V.S) فهذه الكلمات التي ينسبها القديس لوقا إلى المسيح وهو فوق الصليب ليست موجودة في معظم المخطوطات القديمة للكتاب المقدس ، مما يعني في الواقع أنها كلمات منسوبة زورًا إلى المسيح عليه السلام .

ولقد وَرَدَ في طبعة النسخة الجديدة من إنجيل الملك جيمس التي أصدرها الناشر توماس نيلسون في عام ١٩٨٤ أن هذه الكلمات التي يحاول مُرَوِّجُو الدعاية المسيحية أن يستدلوا بها على تسامح ورحمة المسيح عليه السلام والمسيحية ، هذه الكلمات ليست موجودة في النسخة الأصلية للمخطوطة اليونانية لإنجيل القديس لوقا . وبكلمات أخرى ، لقد تم تزييف وإضافة هذه الكلمات بواسطة شخص من الأشخاص ذوي الفضل في تحريف الكلام في إنجيل لوقا . وعلى الرغم من أن هذا النص غير موثوق بصحة نسبته إلى قائله سنظل نضعه في اعتبارنا لأنه يشير إلى التسامح والمحبة للأعداء مما دعا إليه المسيح بنفسه .

ولكي يكون للتسامح قيمة ، فمن اللازم أن يكون الشخص المتسامح في وضع يتيح له أن يعفو وأن يسامح . وعندما يكون ضحية الظلم لا يزال في أيدي أعدائه وفي مخالبهم لا حول له ولا قوة ثم يصيح قائلاً لأعدائه : «أنا أعفو عنكم» فهذا الكلام لا معنى له . ولكن عندما يقلب الجانب الذي تعرض للعدوان المائدة على أعدائه ويصبح في وضع يمكنه من الانتقام منهم أو توقيع عقوبة مماثلة لما حاق به عليهم ، ورغم ذلك يقول لهم : «أنا أعفو عنكم» فعندئذ فقط يكون لذلك بعض المعاني !

الرحمة عند محمد ﷺ

ولنقارن الآن هذه الرحمة [1] المزعومة والعفو عند الإعدام ، رغم عدم المقدرة ، بفتح مكة التاريخي الذي تم دون إراقة للدماء ، والذي حققه محمد ﷺ وهو يقود جيشًا من المسلمين بلغ عدده عشرة آلاف مسلم . ويصف لنا سيد أمير على تفاصيل هذا التسامح وحقائق ذلك العفو عند المقدرة عن الأعداء بقوله :

«مدينة مكة التي كانت قد عاملت النبي ﷺ معاملة بالغة القسوة ، وطردته مع أتباعه المخلصين طلبًا للجوء إلى الغرباء ، مكة التي كانت تهدد حياته وحياة أتباعه ، موجودة الآن تحت قدميه ، وأعداؤه القدامى القساة غلاظ القلوب الذين كانوا قد سحقوا الإنسانية بكل معاني الإنسانية عندما كانوا ينزلون عقوباتهم القاسية على المسالمين من أتباع محمد ﷺ رجالاً ونساء ، وعلى الموتى أيضًا ، إذ كانوا يمثلون بجثثهم أبشع تمثيل ، كانوا الآن تحت رحمته تمامًا . ولكن في ذروة انتصاره كان كل ما قاساه من شرورهم وآثامهم قد تم نسيانه . وكل إساءة كانت قد وجهت إليه كان قد عفا عن مرتكبيها . وامتد العفو العام من جانب محمد ﷺ ليشمل كل سكان مكة» . (سيد أمير على في كتابه : روح الإسلام) .

وبعد أن تكاثر أمام النبي ﷺ سكان مكة المغلوبة على أمرها خاطبهم قائلاً لهم : «يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم؟ «قالوا : «خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم» . قال ﷺ : «**سأقول لكم كما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم . اذهبوا فأنتم الطلقاء!**» .

والآن ، هذا حدثٌ جرت وقائعه ، ولا يوجد له في حقيقة الأمر نظير ولا شبيه في تاريخ العالم . وتقدمت أفواج من الناس بعد أفواج يعتنقون دين الإسلام . ولقد شهد الله لهذا المسلك النبيل لرسوله الكريم محمد ﷺ وذلك

(١) حسب سيدنا عيسى عليه السلام أن الله قال فيه : ﴿ ولنجعله آية للناس ورحمة منا﴾ (مريم:٢١)

في قوله الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب : ٢١) .

وكم كان لامارتين مجيدًا عندما سجل رجع أصداء هذه المعاني النبيلة عندما تساءل قائلاً : «بالنظر إلى كل المقاييس التي تقاس بها العظمة لدى العظماء من البشر ، يجوز لنا أن نسأل : هل يوجد رجل أعظم من محمد ﷺ ؟» .

وإجابة لهذا السؤال اللامرتيني نستطيع أيضًا أن نقول مرة أخرى :

«لا ! لا يوجد رجل أعظم من محمد ﷺ . محمد ﷺ هو أعظم رجل عاش على وجه الأرض!» .

ويتضح مما سبق بيانه أن نبينا محمد ﷺ قد كسب مدحًا وثناء لا نظير له ، ولا خلاف ولا معارضة فيه من جانب غير المسلمين ، من مختلف الأديان ، ومن مختلف مجالات الفكر والبحث العلمي . ولكن هذا كله لا يكتمل دون تقديم شهادة النبي السابق زمنيًا لنبي الإسلام ﷺ ألا وهو المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وسنقدم الآن مقياس سيدنا عيسى عليه السلام لقياس العظمة المحمدية .

يوحنا المعمدان :

كان يوحنا المعمدان ، المعروف لدى المسلمين ، باعتبار أنه هو سيدنا يحيى عليه السلام معاصرًا للسيد المسيح عليه السلام ، وكان كل منهما ابن خالة الآخر . وهذا هو ما قاله المسيح عن سيدنا يحيى عليه السلام طبقًا لرواية إنجيل متى في هذا الصدد ، قال المسيح عنه : «الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان» (متى ١١ :١١) .

وكل البشر مولودون من النساء ؛ وطبقًا لهذه الحقيقة التى قررها المسيح عليه السلام يكون يوحنا المعمدان أعظم من الأنبياء السابقين مثل : موسى ، وداود ، وسليمان ، وإبراهيم ، وأشعياء عليهم السلام بدون استثناء لأي نبي من أنبياء بني إسرائيل . ما الذي يعطي لسيدنا يحيى عليه السلام ، أو يوحنا المعمدان هذه الأفضلية؟ يستحيل أن يكون السبب في هذه الأفضلية هو معجزة من

المعجزات ، لأن الكتاب المقدس لم يسجل أي معجزات لسيدنا يحيى عليه السلام أو يوحنا المعمدان . ويستحيل أن يكون السبب في هذه الأفضلية هو التعاليم الدينية ، لأنه لم يأتِ بأي تعاليم دينية جديدة . ما الذي يجعله إذن أعظم من كل الناس الذين ولدتهم أمهات بمن فيهم أنبياء بني إسرائيل السابقون له زمنيًا؟ السبب في ذلك بكل بساطة هو أن يوحنا المعمدان كان مبشرًا بقدوم المسيح . وكانت تلك البشارة هي التي جعلت يوحنا المعمدان أعظم من الأنبياء الذين كانوا قد سبقوه في تاريخ أنبياء بني إسرائيل . ولكن المسيح عليه السلام قد صرح أيضًا بأنه أعظم من يوحنا المعمدان ، فلماذا ؟ .

لقد قال المسيح بالحرف الواحد طبقًا لما ورد في إنجيل يوحنا : «وأما أنا فلي شهادة أعظم [1] من يوحنا . لأن الأعمال التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الأب قد أرسلني» (يوحنا : ٥ :٣٦) .

إن هذه «الشهادة» التي أشار إليها المسيح عليه السلام في قوله : «أما أنا فلي شهادة» التي ائتمن الله المسيح عليه السلام لكي يؤديها إلى أتباعه طالبًا منهم أن يتبعوا نبي الإسلام ﷺ حالما يتم ظهوره وقدومه إلى البشرية هي التي تجعل شهادة المسيح ﷺ أعظم من شهادة يوحنا ، وهكذا يمكن ملاحظة قيمة شهادة التنبؤ بقدوم نبي تال كما أعلنها المسيح عليه السلام نجد ما يلي :

١) يوحنا المعمدان أعظم من كل أنبياء بني إسرائيل لأنه بَشَّر بقدوم المسيح عليه السلام ، ولم يبشر أي نبي من أنبياء بني إسرائيل بذلك قبل يوحنا . وبالمثل نجد أن عيسى عليه السلام أعظم من يوحنا المعمدان لأن سيدنا عيسى عليه السلام قد بشر بقدوم سيدنا محمد ﷺ ، لذا يعتبر سيدنا عيسى عليه السلام صاحب أعظم بشارة بقدوم أعظم نبي ، خاتم الأنبياء والمرسلين نبي

---

(١) من الثابت بنصوص قاطعة الدلالة في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم أن المسيح عليه السلام كان قد بشر أتباعه بقدوم سيدنا محمد ﷺ خاتمًا للأنبياء والمرسلين - عليهم السلام- ومعه الشريعة الكاملة لكي تكتمل بذلك حلقات سلسلة الأنبياء ولكي يكمل رسول الله ﷺ للناس أمور الدين . (المترجم).

الإسلام ﷺ «روح الحق» على حد تعبير سيدنا عيسى عليه السلام أو «المُعَزِّى» بتعبير سيدنا عيسى عليه السلام أيضًا [1] الذي سيقود «العالم» بتعبير سيدنا عيسى عليه السلام إلى «كل الحق» .

(كما ورد في الإصحاح ١٦ من إنجيل يوحنا) .

٢) مهمة ورسالة سيدنا عيسى عليه السلام أو ما أطلق عليه المسيح عليه السلام قوله «الأعمال التي أناطها الله به لكي ينجزها» ، كانت محدودة داخل نطاق معين لا تتجاوزه هو «الغنم الضالة من بيت إسرائيل» ، على حد قول المسيح وفقًا لما جاء في إنجيل متى (١٥ :٢٤) ، إذ يقول في هذا الصدد : «فأجاب وقال : لم أُرْسَلْ إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» .

(متى ١٥ :٢٤) .

هذه هي رسالة المسيح ، وتلك هي مهمته شأنه في ذلك شأن كل الأنبياء السابقين عليهم السلام . كان كل نبي منهم مرسلاً إلى قومه فقط ، وكان المسيح مرسلاً لهداية قومه ، بني إسرائيل ، وتصحيح وتصويب ما خربوه وحرفوه من شريعة سيدنا موسى عليه السلام .

أما محمد ﷺ فقد كانت رسالته ذات طابع عالمي . كانت رسالته إلى العالم كله ، إلى البشرية كلها ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى بصريح العبارة في القرآن الكريم حيث يقول سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء :١٠٧) .

ونزولاً على مقتضيات الرسالة التي كلفه الله أن يؤديها إلى البشر جميعًا ، قام محمد ﷺ بتبليغ هذه الرسالة إلى كل البشر بصرف النظر عن الجنس أو الطبقة أو العقيد . لقد رحب بهم جميعًا محمد ﷺ في دين الله دون أي

---

(١) يقول المسيح عليه السلام : «لكني أقول الحق: إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم «المعزى» . (يوحنا ١٦:٧) ويقول أيضًا : «إن لي أمورًا كثيرة لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك «روح الحق» فهو يرشدكم إلى «جميع الحق» لأنه «لا يتكلم من نفسه» بل «كل ما يسمع يتكلم به» ويخبركم بأمور آتية». (يوحنا ١٦:١٢-١٣). هذه هي نبوءة المسيح بقدوم سيدنا محمد ﷺ . (المترجم).

تمييز . ولم يكن لديه ﷺ أي ميل أو أي فكرة عن تقسيم الناس إلى «كلاب وخنازير» ، كما هو الشأن في إنجيل متى(٧ :٦) ، أو «خراف وماعز» كما في إنجيل مَتَّى (٢٥ :٣٢) . لقد كان ﷺ هو رسول الله رحمة لكل البشر كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء :١٠٧) . وهو ﷺ لم ينس هذه الرسالة منذ بدء بعثته إلى يوم وفاته .

وفي آوخر سِنِيّ عُمْرِه المبارك ﷺ ، أتيحت له فرصة أن يستعرض ما مضى في حياته من مشاق وأخطار تكللت في النهاية بالنجاح غير المسبوق في أي مكان أو أي زمان ، شعر محمد ﷺ أنه يستطيع أن يجني ثمار كفاحه ، وامتدت آماله لتصل إلى آفاق حياة تسودها الحرية لكل الناس ، حياة مليئة بالرضى والقناعة والراحة من كل المتاعب . ولم يكن يريد ذلك لنفسه ، إذ لم يكن لديه وقت للراحة أو الاسترخاء . لديه عمل كثير . ويذكره الله بهذه الحقيقة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ : ٢٨) .

كيف تسنَّى له ﷺ أن يتجاوب مع هذا التحدي المتمثل في هذا التكليف الكبير ، بأن تكون رسالته إلى الناس جميعًا ، وهو في تلك المرحلة المتقدمة من عمره المبارك؟ لم تكن توجد في حوزة البشرية آنذاك أي وسائل اتصال إلكترونية لتكون تحت تصرفه لأداء هذه المهمة الكبرى التي تشمل العالم كله . ولم تكن هنالك أي أجهزة تلكس ، أو أجهزة فاكس بحيث كان يستطيع أن يستخدمها . ماذا كان يستطيع أن يفعل؟ ولأنه ﷺ كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب ، فلقد استدعى إليه أشخاصًا يستطيعون الكتابة ، أملى عليهم خمسة خطابات ، إلى إمبراطور الرومان في القسطنطينية ، وإلى المقوقس حاكم مصر ، وإلى النجاشي ملك الحبشة ، وإلى ملك اليمن ، وإلى ملك الفُرْس ، ثم خمسة من الصحابة ، امتطى كل منهم جواده وأرسل بهم إلى خمسة اتجاهات داعيًا بذلك أم العالم المعمور من حوله إلى دين الله الذي اختاره للعالم كله .

ولقد حالفني حُسْن الحظ بحيث شاهدت بنفسي واحدة من تلك الرسائل المباركة ، في متحف توبكابي في مدينة استامبول (أو القسطنطينية) في تركيا .

وكانت تلك الرسالة يعلوها الغبار! لقد احتفظ الأتراك بمادة الرسالة ، ولكن كان يعلوها الغبار ، وكان نصّ الرسالة يبدأ على النحو التالي : «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم بالقسطنطينية أسلم تسلم» .

وبعد هذه الدعوة إلى الإسلام ورد هذا التحذير المستمد من القرآن الكريم : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران :٦٤) .

وبعد هذا النص القرآني الحكيم الذي تضمنته الرسالة من محمد ﷺ إلى هرقل إمبراطور الرومان تنتهي الرسالة بالخاتم النبوي الذي يقول :

«لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

والخطاب الموجود في تركيا يثير لدينا أعظم فضول ، وحب استطلاع أن الآية القرآنية التي وردت في مضمون الخطاب موجودة في كل بيت مسلم . وهي تتلى وتعاد تلاوتها ألف مرة ومرة دون أن يتحرك من يقوم بتلاوتها أقل حركة في سبيل توصيل «الرسالة» إلى من وجه الله إليهم هذه الرسالة!

ولنعد النظرة مرة أخرى إلى نص الآية القرآنية الكريمة . إنها موجهة إلى أهل الكتاب- وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى . ولكننا منذ أكثر من ألف عام قد تجاهلنا وأهملنا شأن هذا التوجيه الإلهي الكريم من جراء تقصيرنا وفتور هممنا وضعف إرادتنا . إننا نجلس فوق كنوز هذه الرسالة الإسلامية ، مثل الكوبرا فوق كنز من الثروة الهائلة . الثروة موجودة ولكن الكوبرا تحول دون استفادة الناس منها ما دامت موجودة فوقها تحول دون انتفاع المستحقين من تلك الثروة . وهذا الإهمال التام لشأن هذه الرسالة الإلهية سيستمر لكي ينتج عنه أضرار وأخطار وآلام لا حصر لها بالنسبة إلى الأمة الإسلامية في الأجيال القادمة ما لم تؤد الأمة الإسلامية الرسالة التي أوكل الله إليها أن تؤديها إلى الأمم الأخرى .

وبعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة من قراءتنا وترتيلنا بمختلف طرق وأساليب القراءة والترتيل للقرآن الكريم ، نحن لا نزال نسمع هذه الآية القرآنية الكريمة

التى تنبهنا إلى حقيقة بالغة الأهمية ، إذ يقول الله - سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ :٢٨) .

ولقد وَرَدَ هذا التعبير القرآني الحكيم ، وصدق الله العظيم في ختام الآية القرآنية الكريمة التي أنزلها الله في القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ :٢٨) .

ولقد كان ذلك هو التعبير الصحيح الذي ينطبق كل الانطباق على الموقف الديني في العالم فيما بعد . والسؤال الآن هو : هل يختلف الأمر من الناحية الدينية في العالم اليوم عمّا ورد في ختام هذه الآية الكريمة ؟ لا ، إن الأمر لا يختلف أي قدر من الاختلاف . ما أكثر الناس الموجودين في العالم اليوم ولا يعرفون أن الإسلام هو دين الله الصحيح ، ولا يعرفون أن محمدًا ﷺ هو آخر الأنبياء المرسلين ، أرسله الله بشيرًا ونذيرًا إلى جميع الناس في كل مكان وزمان! حقًا ، إن أكثر الناس لا يعلمون بالضبط كما قال الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة . ويوجد في عالم اليوم عدد من المشركين يفوق عدد من يعبدون الله الواحد الحق .

هل يوجد أي أمل في تغيير هذا الموقف؟ إن الله - سبحانه وتعالى- قد أمر النبي ﷺ كما يأمرنا ، وذلك من خلال الآيات السبع الأولى في صدر سورة المدثر ، إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (المدثر :١) .

ويوجد ثلاثة اعتبارات في هذه الآيات في صدر سورة المدثر :

أ) مناسبة خاصة بالنسبة إلى شخص مُعَيَّن .

ب) درس روحي عام لكل المسلمين .

جـ) معنى روحي عميق يشير إلى حالة نفسية من الحالات التي توجد في الحياة الروحية للإنسان .

وبالنسبة إلى الاعتبار (أ) :

كان النبي ﷺ آنذاك قد تجاوز مرحلة التأمل الذاتي ، وكان عليه آنذاك أن يرتدي عباءته ، وأن يخرج ، وأن يبلغ رسالة ربه ، الله الواحد الحق ، بجرأة وبثبات وعلنًا إلى الناس . لقد كان قلبه على الدوام نقيًا خاليًا من الإشراك بالله ، ولكن كل تصرفاته الآن لن تنحصر في ألا يكون هو نفسه من المشركين ، بل من المحتم عليه أن تتجه كل تصرفاته لتكون خالصة لله ، وخالصة للدعوة إلى الله الواحد الحق الذي لا إله إلا هو . واحترام الأعراف المتوارثة لدى قومه ، وممارسات عبادتهم الخاطئة يلزم الإطاحة بها . إن جهوده في تبليغ رسالة ربه جهود سخية ، كرَّس لها كل إمكاناته ، ولكن تجاوب قومه وعشيرته مع هذه الجهود الشخصية كان عسير المنال ، وكان يحتاج إلى كثير من الصبر وقوة التحمل ، وعزاؤه في الجهد والمشقة ، وقلة تجاوب قومه وعشيرته هو رضى الله سبحانه وتعالى عن أمانته في تبليغ رسالة الله إلى الناس .

وبالنسبة إلى الاعتبار (ب) :

مهام مشابهة للمهمة التي اضطلع بها رسول الله ﷺ بدرجة أقل في حياة كل مسلم يحرص على حُسْنِ إسلامه ، لكي تكون حياة النبي ﷺ نموذجًا عالميًا ، يلزم أن يحرص عليه كل إنسان مسلم له في رسول الله ﷺ أسوة حسنة .

وبالنسبة للاعتبار (جـ) :

نجد أن المتصوفين المسلمين يدركون جيدًا أن العباءة إنما هي ملبس خارجي فوق الثياب ، وفوق الجسم ، وفوق كل ما يجول داخل الجسم . والظروف المتعلقة بالوجود الظاهري الذي يتبدى للعيان ، وللحواس المدركة في الإنسان ، وهي الظروف اللازمة لنا لكي نستريح عندما نلبي مطالب راحتنا في الحياة إلى حد مُعَيَّن قَدْرَ استطاعتنا ، ولكننا سرعان ما نتجاوز ذلك الجانب الحسي الملموس في حياتنا لكي نتأمل ذواتنا ، وما يدور داخل ذواتنا ، وهو سرعا ن ما يعلن عن نفسه ، ويعبر عن وجوده ، وهو في حالته المثلى لا يتجه إلى الحصول على مكافأة أو الحصول على ملذات مادية ، لا تتسق مع ما ننشده من سمو روحي ،

لا يتهافت على الملذات المادية ، ولكن يتجه ، ويهدف إلى الحصول على الفرح والنشوة عندما يتحقق له الحصول على مرضاة الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (المدثر : ٢-٥) .

يقول عبد الله يوسف على تفسيرًا لهذه الآيات في ترجمته لمعاني القرآن الكريم : «الرجز ، بضم الراء ، أو بكسر الراء هو الشيء القبيح المستهجن ، وهو يعني أيضًا عبادة الأصنام من حيث هي شيء قبيح مستهجن ، ومن الممكن أن يكون الرجز اسم من الأسماء التي كان يطلقها الوثنيون على صنم من الأصنام جريًا على عاداتهم في تخصيص كل صنم باسم يميزه عن غيره . ولكن في أيامنا الراهنة يمكن أن نعتبر أن الرجز أيضًا يتضمن في معناه الحالة الذهنية المناهضة للإيمان الصحيح بالدين الحق ، وعبادة الله حق عبادته ، وهو يتضمن في معناه أيضًا حالات التشكك والإلحاد بالله سبحانه وتعالى» .

﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ «القاعدة القانونية والتجارية هي : أنك تعطي لكي تأخذ ما يحق لك ، بحيث يكون أكثر قليلاً مما أعطيت . ولكن عطاءك لله ، وبذلك الجهد في سبيل الله يلزم ألا تنتظر في مقابل ذلك الأجر الناجز . جاهد في سبيل الله ، وفي سبيل خلق وعباد الله ، والله سبحانه وتعالى هو الذي يجزى ما شاء من جزاء» .

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ «إن جهادنا في سبيل الله يتطلب ألا نكون غير صبورين . من الضروري أن نصبر على المكاره والمشاق أثناء جهادنا في سبيل الله . ومن الضروري أن نثابر ونواصل الجهد في سبيل انتصار قضية الله ، لأننا نؤمن بالله ، ونؤمن أن الله هو العليم الحكيم القوي المتين ، وسيكون كل شيء كما يريد الله سبحانه وتعالى» .

وبالنسبة للعرب عمومًا ، وبالنسبة إلى النبي ﷺ خصوصًا ، تعتبر العباءة التي يتدثر بها الإنسان ثوبًا يتم ارتداؤه فوق كل الملابس ، للحماية من الشمس والرياح والرمال والبرد ، ويمكن القول بأنه كان قد تدثر بهذا الدثار لكي ينهض بأداء عمله وتبليغ رسالته . وعلى الرغم من أن معظم المسلمين في العالم اليوم لا يرتدي كثير منهم العباءة فوق ملابسهم ، ولكنهم في الغالب الأعم يخفون أنفسهم ويختبئون تحت كثير من الأغطية الكثيفة ، لكيلا يؤدي أي شخص

منهم واجبه نحو تبليغ رسالة ربه إلى الناس ، على الرغم من أن النبي ﷺ الذي يعتبره كل مسلم قدوته الحسنة ، كان قد «تدثر» في عباءته ، وخرج لكي يؤدي إلى الناس رسالة ربه . إن المسلمين في أيامنا الراهنة يتدثر كثير منهم بدثار عقدة الشعور بالنقص والدونية والانحطاط دون نقص أو دونية أو انحطاط في حقيقة الأمر فيما يتصل بأمور دينهم أو دنياهم لو أخلصوا العمل ، وأطاعوا الله وأطاعوا رسول الله ﷺ . وفي ذلك يقول عبد الله يوسف على :

«ماذا نستطيع أن نفعل لنجعل نور الله يسطع من خلال الظلمات حولنا؟ يجب أولاً أن نجعل نور الله يسطع داخل أنفسنا بكل إخلاص . وبذلك النور في المشكاة الموجودة داخل قلوبنا نستطيع أن نمشي بخطوات حازمة وثابتة . ونستطيع بكل تواضع أن نزور المحرومين من الراحة ، ونرشدهم ونشجع خطواتهم ، ولن نكون نحن الذين نفعل ذلك ، بل سيكون النور هو الذي يقوم بالمهمة . ولكن فلننتبه ، إن الفرحة الناجمة عن أن تكون أنت حامل مشعل النور ، ثم تقول لإخوتك : «لقد كنت أنا أيضًا أتخبط في الظلام الدامس ، ولكنني وجدت الراحة والسرور بفضل من الله» هكذا نستطيع أن ندفع ضريبة الأخوّة عندما نمشي بكل تواضع جنبًا إلى جنب ..... في سبيل الله ..... يساعد كل منا الآخر ، ويواسيه ، ويشد من أزره ، ونصلي لله ونشفع صلواتنا بالأعمال النافعة ، لكي يتحقق ما يطلبه الله منا ، عندما نتعاون جميعًا في تبليغ رسالة الله وتحقيق مشيئته» .

هذا ، .....

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ : ٢٨) .

هكذا كان يتحدث كما أوحى الله إليه نَبِيُّنا الكريم مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وسَلَّم، عليه رحمة الله وبركاته إلى أبد الآبدين .....

آمين